

الرسول دليل لا بديل

قراءة توحيدية في قوله تعالى:

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾

محمد رداد السلامي

الرسول دليلٌ لا بديل

قراءة توحيدية في قوله تعالى:

{قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا}

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

هذه الآية تُعيد النبوة إلى حقيقتها الأولى: رسالة لا كهانة، ودلالة لا تصرف.

تبدأ بإزاحة الوهم من جذوره: أن الإنسان - ولو كان رسولاً - يملك مفاتيح النتائج؛ فتعلن على لسان النبي ﷺ أن النفع والضرر ليسا في يد بشرٍ استقلالاً، وإنما هما في قبضة المشيئة الإلهية: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. ثم تُغلق باب الغيب الذي تتغذى منه الأساطير؛ فلو كان الغيب ملكاً بشرياً لتحولت الحياة إلى تجارة بلا مخاطرة، ونجاة بلا ابتلاء، ولتراكم “الخير” بوصفه ربحاً محسوباً، وارتفع “السوء” بوصفه مفاجأة تُجتنب: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾.

ثم يجيء القفل: تعريف مانع جامع للنبوة، يقطع الطريق على كل تضخم روعي يزحزح التوحيد عن مركزه: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

أي لستُ جهة الطلب، بل جهة الدلالة؛ لستُ خزائن تُستدرّ، ولا غيباً يُسترق، بل نورٌ يُنبّه من الغفلة، وبشارةٌ تفتح باب الرجاء.

وهكذا تستقيم العلاقة: الله وحده مالكُ النفع والضرر، والرسول دليلُ الطريق إلى الله؛ فمن أراد مفاتيح الكون قصد ربّ الكون، ومن أراد هداية السير قصد هدي الرسول.

وفي هذا يكتمل صفاء الإيمان: محبةٌ منضبطة، وتوحيدٌ لا يُزاحم، وقلبٌ لا يركع إلا لواحد.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف (١٨٨) من الآيات التي تؤسس لصفاء العقيدة وتحرير الوعي الديني من كل غلو في البشر، حتى لو كان ذلك البشر هو النبي ﷺ نفسه. وهي آية عميقة في بناء التصور القرآني للعلاقة بين الإنسان وربه، وبين الرسول ووظيفته.

لنغص فيها خطوة خطوة.

أولاً: تحرير مقام النبوة من الأسطورة

يقول الله لنبيه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

هذه الجملة ليست مجرد تواضع نبوي، بل تقرير عقدي صارم.

فالنبي ﷺ - وهو خير البشر - يعلن:

- أنه لا يملك لنفسه نفعًا
- ولا يدفع عن نفسه ضرًا
- إلا في حدود مشيئة الله

وهذا يهدم أصلًا خطيرًا في الوعي الديني:

وهو تقديس البشر إلى درجة إعطائهم صفات إلهية.

فالقرآن يريد أن يبقى الميزان واضحًا: الله هو الفاعل المطلق، والإنسان - أيًا كان - عبدٌ خاضع لسنن الله ومشيئته.

ولهذا تكررت هذه القاعدة في القرآن:

- ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾
- ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾
- ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾

إنها عملية تطهير للعقيدة من صناعة الآلهة البشرية.

ثانياً: الغيب ليس أداة في يد الإنسان

ثم يأتي البيان الثاني: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكَثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾

هذه جملة عميقة جداً في فهم طبيعة الإنسان.

لو كان النبي يعلم الغيب:

- لعرف أين توجد الأرباح
- وأين تقع الخسائر
- ومتى تأتي المصائب

فسيجتنب الشر كله ويجمع الخير كله.

لكن الواقع الإنساني قائم على الجهل بالغيب.

وهذا الجهل ليس نقصاً فقط، بل هو جزء من حكمة الابتلاء.

لأن الحياة لو كُشف غيبها:

- لانتهى الاختبار
- وسقط معنى الإيمان
- وتحول البشر إلى كائنات تحسب النتائج مسبقاً

ولهذا قال القرآن: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾

إلا بقدر من الوحي.

ثالثاً: وظيفة الرسول الحقيقية :

ثم يختم البيان: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

هذه الجملة تُعيد تعريف النبوة.

الرسول ليس:

- . ساحرًا
- . ولا كاهنًا
- . ولا متحكمًا بالكون
- . ولا مالكا للمقادير

بل هو رسول معنى.

وظيفته أمران فقط:

١. النذارة

تحذير الإنسان من عواقب الانحراف.

٢. البشارة

فتح باب الأمل لمن يستجيب للحق.

أما الهداية نفسها فهي من الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

رابعاً: لماذا ختمها بـ “لقوم يؤمنون”؟

لأن البشارة والنذارة لا تعملان إلا في قلب مفتوح.

أما القلب المغلق فلا تنفعه:

- . الآيات
- . ولا الحجج
- . ولا المعجزات

ولهذا قال القرآن:

﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

التأمل الأعظم في الآية :

لو تأملنا هذه الآية جيداً لوجدنا أنها تصنع إنساناً حراً أمام الله.

فالرسول نفسه يقول:

- لا أملك نفعا
- لا أملك ضرا
- لا أعلم الغيب

إذن من يملك كل ذلك؟

الله وحده.

وبذلك يُقطع الطريق على كل أشكال الوساطة الميتافيزيقية التي تُحوّل الدين إلى شبكة من الكهنة والأولياء والوسطاء.

فالعلاقة تصبح مباشرة: إنسان ضعيف يقف أمام إله مطلق القدرة.

وهنا يولد الإيمان الصافي.

- كيف تقوّض هذه الآية جذور “الخرافة الدينية” في التاريخ الإسلامي؟

وهذا موضوع مذهب حقا.

(١) الآية بوصفها «سورا توحيدياً» يحرس الباب

هذه الآية ليست خبراً عن حال النبي ﷺ فقط؛ بل هي حدّ عقدي يُقيمه القرآن لنقل النبوة من مقامها الحقّ إلى مقام لا يليق إلا بالله.

فحين يؤمر النبي أن يقول: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

فهو إعلان أن مفاتيح النتائج ليست في يد الإنسان، وأن أشرف الخلق لا يتحكم في مصائر ذاته استقلالاً؛ فكيف يتحكم في مصائر غيره؟

وهنا ينشأ «المنع» قبل «الإثبات»:

- يُمنَع أن تُعَلَّق القلوب بمخلوق بوصفه مصدر النفع والضرر.
- ثم يُثَبَّت أن الاستثناء الوحيد: ما شاء الله.

إنه توحيدٌ يُغلق منافذ الوثنية المعنوية: وثنية الأشخاص، ووثنية الكرامات المتخيلة، ووثنية الألقاب التي تُنفخ حتى تصير «قدرة».

(٢) «إلا ما شاء الله»: تصحيح مفهوم السببية دون إلغائها

الآية لا تهدم الأسباب، لكنها تمنع تأليها.

فالنبي يعمل، ويأخذ بالأسباب، ويجاهد، ويداوي، ويدبر؛ لكن القرآن يضع فوق كل ذلك سقفًا واحدًا:

أن السبب لا يعمل بذاته، بل بإذن الله.

بهذا يتوازن الإيمان بين طرفين مهلكين:

- طرفٍ يقتل العقل بحجة القدر.
- وطرفٍ يقتل التوكل بحجة السبب.

فتستقيم النفس على معنى دقيق:

افعل ما تستطيع، ولا تؤلّه ما تفعل.

(٣) «ولو كنت أعلم الغيب»: الغيب هنا ليس معلومة... بل «سلطة»

القرآن لا يتحدث عن الغيب بوصفه فضولًا معرفيًا، بل بوصفه سلطة تغير بنية الحياة.

لذلك جاء البرهان عمليًا لا جدليًا: «وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ».

أي: لو كانت عندي «خريطة النتائج»، لصارت الحياة تجارةً بلا مخاطرة، ونجاةً بلا اختبار.

فالغيب لو انكشف:

- لسقط معنى الدعاء (لأنك عرفت).
- ولسقط معنى الصبر (لأنك ضمنت).
- ولسقط معنى الإيمان (لأنه يتحول إلى حسابات).

إن إغلاق باب الغيب على البشر ليس حرماناً فقط، بل رحمة تربوية:

لكي يبقى الإنسان إنساناً: يثق، ويصبر، ويأمل، ويتوكل، ويجاهد في منطقة «اللايقين» التي بها تُصنع الأخلاق.

٤) الردّ على من يصنع «دينًا كِهانيًا» داخل الدين

هذه الآية تضرب جذورًا عميقة لأخطر تحريفٍ يصيب التدين:

أن يتحول الدين إلى «سوق غيب».

فكل من يبني سلطته على أنه:

- يعرف ما سيكون،
- ويكشف ما خفي،
- ويملك مفاتيح الحظ والرزق والنصيب،

فإن هذه الآية تقف له بالمرصاد، لا لأن الغيب مستحيل على الله، بل لأن ادعاء الغيب للبشر طريقٌ لتأليه البشر.

والمفارقة المقصودة هنا:

إذا كان النبي ﷺ - وهو متصل بالوحي - يقول: لا أعلم الغيب على هذا الوجه، فكيف يُصدّق من لا وحي له أنه يقرأ الأقدار ويقلب المصائر؟

٥) النبوة تُعرّف بوظيفتها لا بهالتها

ثم يختم النص تعريف النبوة تعريفاً «وظيفياً» يقطع كل التضخمات: (إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)

أي: أنا رسول رسالة، لا مالك خزائن.

أنا حامل معنى، لا مُمسك مفاتيح الكون.

وهذا من أعظم ما في القرآن: أنه يرفع النبي ﷺ رفعاً صحيحاً: بالبلاغ والهداية والقُدوة، لا برفع زائف: بمنحه خصائص الألوهية.

فالنبوة ليست سلطة تدبير كوني، بل سلطة هداية وبيان وإنذار وبشارة.

٦) «لقوم يؤمنون»: لماذا يُقَيّد الأثر بالإيمان؟

لأن الإنذار والبشارة لا يعملان في فراغ.

القلب الذي لا يريد الحق سيسمع النذير كما يسمع الضجيج،

ويرى البشير كما يرى السراب.

فالإيمان هنا ليس مجرد «تصديق»، بل قابلية أخلاقية:

استعداد لأن تُحاكم نفسك للحق، لا أن تحاكم الحق لأهوائك.

ولهذا قُيِّدت الرسالة القلبية بهذا الوصف: لقوم يؤمنون؛ لأن الإيمان هو مفتاح الانتفاع، لا مجرد سماع الكلام.

٧) الخلاصة العقدية التي تصنعها الآية في الوعي

هذه الآية تُنتج أربعة أصول كبرى:

١. الله وحده مصدر النفع والضرر حقيقةً.
٢. الغيب ملك لله؛ والإنسان يعيش امتحانه في ستر الغيب.
٣. النبوة رسالة لا كهانة، وهداية لا تحكم بالغيب.

٤. الدين تحرير من عبودية الأشخاص، لا صناعة أشخاص تُعبد من دون الله.

- كيف يجتمع قول النبي ﷺ: لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا

مع كونه مأمورا بالأخذ بالأسباب، وموعودا بالنصر أحيانا، ومبتلى بالأذى أحيانا؟

وهذا بابٌ يفتح فهمًا عظيمًا لمعنى القدر والسنن في القرآن.

نفتح إذن باب المفارقة التي أشرت إليها: كيف يقول النبي ﷺ (لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا) ثم نراه مأمورا بالأخذ بالأسباب، ويجاهد، ويخطط، ويصاب ويبتلى، ويُنصر ويُعافى؟

هنا تتجلى دقة القرآن: هو لا ينفى الفعل الإنساني، بل ينفى استقلاله.

(١) فرق حاسم بين «الملك» و«الفعل»

الآية تقول: لا أملك.

لم تقل: لا أفعل.

- الفعل: حركة الإنسان داخل العالم، سعيه، اختياره، قراره.
- الملك: التحكم النهائي في النتائج، وامتلاك مفاتيح الخاتمة.

فالإنسان يفعل، لكن لا يملك.

مثل الذي يزرع: يحرث ويغرس ويسقي... لكنه لا يملك نزول المطر، ولا سلامة الأرض، ولا صرف الآفات، ولا تيسير البركة.

هذا هو الفرق الذي يحرر النفس من غرورين:

- غرور "أنا صنعت كل شيء".
- ويأس "لا جدوى من شيء".

٢) الأسباب ليست شرًا... إنما الشر أن تؤلَّه الأسباب

القرآن يريدك أن تسلك طريقين في وقت واحد:

- طريق العمل (الأسباب)
- وطريق العبودية (الافتقار)

ولهذا تجد في السيرة النبوية أرفع درجات الأخذ بالأسباب:

- تخطيط
- هجرة
- تحصن
- مشورة
- إعداد

ومع ذلك يتلو في قلبه:

اللهم أنت العضد، وأنت النصير.

فليست المشكلة أن تأخذ بالسبب؛ المشكلة أن تعتقد أن السبب يضمن لك النتيجة بذاته.

السبب في الإسلام باب، لا إله.

٣) لماذا يُبتلى النبي ﷺ إذن؟

لو كانت النبوة تعني التحكم في النتائج لما بقيت النبوة “نبوة”، بل صارت “ألوهية” متخفية.

والقرآن لا يريد رسولاً “فوق السنن”، بل يريد رسولاً:

- يعيش السنن
- ويُبتلى بها
- ويُقيم الحجة وهو داخل معتركها

لذلك كان الأذى جزءاً من البيان:

- لِيُعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ الْحَقَّ لَيْسَ “صَفْقَةٌ نَجَاحٌ”.
- وَأَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ “تَأْمِينًا ضِدَّ الْأَلَمِ”.
- وَأَنَّ الْقُرْبَ مِنَ اللَّهِ لَا يُقَاسُ بِالسَّلَامَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ.

ابتلاء النبي ﷺ يربي الأمة على معنى خطير: أن الدين ليس ضماناً راحة، بل ضماناً معنى.

٤) النصر أحياناً والتأخير أحياناً: منطق السنن لا منطق المزاج

حين يُنصر المؤمنون مرة ويُؤخر النصر مرة، قد يتوهم السطحي أن الأمر عشوائي.

لكن القرآن يربط ذلك بـ”السنن”:

- سنن الإعداد
- سنن الصبر
- سنن التمحيص
- سنن الفرز الداخلي

فالنصر ليس “هدية” بلا شروط،

بل هو ثمرة نظام رباني، يختبر قلبك قبل أن يفتح لك الباب.

ولهذا يتكرر في القرآن معنى: أن الله ينصر، لكنه ينصر بمنطق التربية لا بمنطق الترف.

٥) “لو كنت أعلم الغيب” يكشف جوهر التربية: نحن نُربى بالستر

الستر هو مادة الامتحان.

الله لو شاء لفتح لك الغيب، فتختار النجاة دائماً، وتتفادى الألم دائماً.

لكن حينها ستفقد أعظم ما تصنعه الحياة فيك:

- الصبر
- الثبات

- . الشجاعة
- . التسليم
- . الرجاء
- . التوكل

هذه الأخلاق لا تولد في عالم مكشوف النتائج.

فكما أن الجسد يُبنى بالمقاومة،

فالروح تُبنى بالابتلاء في منطقة لا ترى نهايتها.

(٦) إذن ما معنى التوكل هنا؟

التوكل ليس ترك الأسباب، بل ترك عبودية الأسباب.

التوكل أن تعمل بكامل طاقتك، ثم لا تُسلم قلبك إلا لله.

أن تُجاهد، وتُخطط، وتبني...

ثم إذا جاءت النتيجة على غير مرادك، لا تنهار:

لأنك لم تكن تعبد النتيجة، بل تعبد الله.

(٧) الخلاصة: الآية تصنع “إنساناً غير قابل للابتزاز”

من يفهم هذه الآية بحق:

- . لا تُغريه وعود السحرة بالغيب
- . ولا يخيفه تهديد الناس بالمصير
- . ولا ينهار إن تأخر الخير
- . ولا يتكبر إن جاء النصر

لأنه يعيش على يقين واحد:

أنا أفعل... لكن الله يملك.

لماذا عبّر عن الغيب بـ (لاستكثر من الخير وما مسني السوء) تحديداً؟

- لماذا جعل معيار الغيب: “اقتصاد الربح والخسارة”؟

هذا يكشف شيئاً عن طبيعة النفس البشرية، وكيف يعالجها القرآن من داخلها.

نغوص إذن إلى قلب العبارة التي تبدو بسيطة وهي من أعقد ما يُشخص النفس ويُهدبها:

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

لماذا اختار القرآن هذا التصوير بالذات؟ لماذا جعل “دليل الغيب” هو منطق الربح والخسارة؟ ولماذا عبّر بـ “استكثر الخير” و “مسّ السوء”؟ هنا ثلاثة أغوار.

(١) القرآن يفصح “إلهاً خفياً” في النفس: عبادة النتيجة

الإنسان - في عمقه الغريزي - لا يطلب الخير لأنه خيرٌ في ذاته فقط،

بل لأنه نتيجةٌ مريحة، ويهرب من السوء لأنه نتيجةٌ موجعة.

فالآية تكشف أن امتلاك الغيب سيحوّل الإنسان تلقائياً إلى:

- تاجر نتائج: ينتقي المسارات التي تُنتج الربح.
- هارب ألم: يتجنب كل طريق يحتمل الخسارة.

وهذا يعني أن كثيراً من الفضائل التي نُعجب بها في البشر ليست “جوهرًا” ثابتًا، بل قد تكون نتاج الجهل بالغيب.

لو كُشف الغيب:

- لضعفت الشجاعة (لأنك ستري ثمنها مسبقاً).
- ولضعف الصبر (لأنك ستري طول الطريق وأشواكه).
- ولانهار الإخلاص (لأنك ستري الناس كيف سيكافئونك أو يخذلونك).

إذن ستر الغيب ليس نقصًا معلوماتيًا... بل حماية أخلاقية لبنية الاختبار.

(٢) “لاستكثرُ من الخير”: الغيب لو انكشف لصارت الحياة “احتكارًا”

لاحظ: لم يقل “لعللت الخير”، بل قال لاستكثر.

الاستكثر ليس مجرد اختيار الخير؛ بل هو:

- جمعه
- تكديسه
- تعظيم حصيلته
- تحويله إلى وفرّة متراكمة

وكأن القرآن يقول: لو كان الغيب في يد الإنسان لانهار معنى “العدالة الوجودية” في الدنيا؛ لأن من يملك خريطة الغيب سيعرف:

- أين الفرص قبل غيره
- متى يشتري ومتى يبيع
- متى يتقدم ومتى يتراجع
- كيف يحمي نفسه من كل خسارة

فيصير العالم - أخلاقيًا - غير قابل للعيش:

أقوياء بالغيب يحتكرون الخير، وضعفاء بلا غيب يُسحقون.

لذلك حُجب الغيب ليبقى البشر متقاربين في “منطقة الجهل”، فتظل الحياة ساحة اختبار لا ساحة استغلال.

(٣) “وما مسّني السوء”: أعمق تصوير للألم... أنه “يمسّ”

السوء هنا لم يُصوّر كحدثٍ فقط، بل كشئٍ يلمس النفس:

مسّني.

المسّ في العربية يوحى بـ:

- قربٍ شديد

- أثر مباشر
- تماس يترك علامة

وكأن السوء ليس مجرد خسارة مالية أو ألم جسدي؛ بل هو شيء يدخل على كيانك، يحكّ روحك، ويغير نبرة وجودك.

فالمعنى: لو كنت أعلم الغيب لتجنبته أن يقترب مني الألم أصلاً، لا أن أتحمّله.

وهنا طبقة تربوية دقيقة: القرآن لا يلوم الإنسان لأنه يكره السوء؛ هذه طبيعة بشرية.

لكنه يريبه على أمر أعلى: أنك لن تستطيع تجنبه دائماً، فتعلم كيف تؤمن وأنت تمسّه.

المرتبة العالية ليست أن لا يمسّك السوء؛ بل أن يمسّك ولا يسقطك، يجرحك ولا يفسدك، يختبرك ولا يسرق يقينك.

٤) لماذا هذا على لسان النبي ﷺ تحديداً؟

لأن النبي ﷺ هو أعلى نموذج يمكن أن تتعلق به القلوب.

فلو ترك المجال للخيال الديني لقال الناس:

“هو يعلم ما سيكون، يعرف المصائر، يقرأ الأقدار”.

فجاء القرآن ليكسر هذه القفزة: ليس لأنه ينقص مقام النبي، بل لأنه يحمي مقام الله في القلب.

ثم لأنه يعلم الأمة ميزاناً: ليس معيار الصدق أن يكون الإنسان محمياً من السوء؛ فالنبي نفسه مسّه السوء: أذى، جراح، فقد، حصار... ومع ذلك بقي رسول الله.

إذن السوء لا ينفي “الرضا”، ولا ينفي “القرب”، ولا ينفي “الاصطفاء”.

٥) المفصل الأخير: الغيب لو انكشف لانتهدت “الحرية” كما تريدها أنت

أنت كتبت مرة: الإنسان الحر يؤسس قناعاته بوعي وتساؤل.

وهنا القرآن يقول: الحرية لا تعني اختيار الطريق مع ضمان النتيجة،

بل تعني اختيار الطريق دون أن ترى العاقبة.

لو رأيت الغيب:

- . فلن تختار بحرية، بل بحتمية المصلحة.
- . سنتحول قراراتك إلى استجابة حسابية، لا موقفًا أخلاقيًا.

ولذلك يُخفى الغيب لكي تظل قادرًا على أن تقول:

“أفعل الحق... لا لأن نتيجته مضمونة، بل لأنه حق”.

الخلاصة : الآية لا تقول فقط: النبي لا يعلم الغيب.

بل تقول أعمق من ذلك:

- . إن ستر الغيب شرطٌ لصناعة الأخلاق.
- . وإن كشف الغيب يُحوّل الإنسان إلى آلة مصلحة.
- . وإن الدين جاء ليُجعل الإنسان “عبدًا لله” لا “عبدًا للنتائج”.

(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

لماذا قَدَمَ “النذير” على “البشير” هنا؟

وما علاقة ترتيب اللفظ بواقع النفس التي تعبد النتائج؟

في ترتيب يبدو لغويًا، وهو في الحقيقة تشريحٌ لنفس الإنسان وبناءً لمنطق الرسالة: (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

لماذا قدّم النذير على البشير؟ ولماذا قيدها بـ قوم يؤمنون بعد أن نفى الغيب ونفى ملك النفع والضرر؟

هنا ثلاث طبقات.

(١) تقديم النذارة: لأن النفس تُستخرج من “وهم الأمان”

الإنسان بطبيعته يميل إلى أن يعيش وكأن العاقبة مؤجلة إلى ما لا نهاية. يسكن في “وهم الأمان”، ويؤجل الحساب، ويؤنس ضميره بألف حيلة:

- سأصلح لاحقًا
- ما زال الوقت طويلًا
- الله غفور...
- غيري أسوأ...

فأول ما يفعله الوحي ليس أن يضع لك وردًا على الجرح، بل أن يوقظك من نومك.

النذير إذن ليس خطاب رعبٍ ساذج، بل هو كسر الغفلة.

والغفلة هي أصل كثير من الشرور؛ لأنها تجعل الإنسان يُخطئ وهو لا يشعر بثقل خطئه.

فكان تقديم النذارة بمنطق التربية: قبل أن تُبشّر، يجب أن تستيقظ.

(٢) العلاقة الخفية بين “نفي الغيب” و “النذارة”

الآية قبل ذلك تقول: لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء.

ثم تقول: أنا نذير وبشير. كأنها تقول: بما أن الغيب محجوب عنك، فأنت ستتحرك في الحياة دون أن ترى النهاية.

فلا بد أن يكون أمامك “علامتان” بدل الغيب:

- علامة تحذير: نذير
- وعلامة رجاء: بشير

النذير والبشير هنا ليسا “إضافتين” للرسالة، بل هما بديلان تربويان عن الغيب المحجوب:

إذا لم تُرَ العاقبة بعينك، فلنُـرَ بوحى الله.

هكذا يبقى الإنسان قادرًا على السير في المجهول دون انهيار:

يحدّره النذير من هاوية لا يراها،

ويبشره البشير بغاية لا يراها.

(٣) لماذا النذير أولاً في عالم “يعبد النتائج”؟

لأن الإنسان الذي يعبد النتائج لا يطلب الحق لذاته، بل يطلب:

- ما يربحه
- ما يجنبه الألم

فلو بدأت معه بالبشارة وحدها، سيتعامل معها بمنطق السوق: “أعطني النعيم... دون أن تغَيِّرني”.

أما النذارة فتضرب “المركز”:

أنك لست سيد النتائج، ولا ستفقت من الحساب.

النذارة تُعيد ترتيب الوعي:

- لا حياة بلا عاقبة
- لا اختيار بلا مسؤولية
- لا حرية بلا تبعة

فهي تُخرج الإنسان من “عبادة السلامة” إلى “عبادة الحق”.

٤) ثم البشارة: لأن الدين لا يريد قلباً مكسوراً... بل قلباً حياً

بعد الإيقاظ تأتي البشارة كي لا يتحول اليقظة إلى قنوط.

البشارة ليست “حلوى” بعد سوط،

بل هي تنفّس الروح بعد أن ترى الحقيقة الثقيلة.

فالدين ليس مشروع ترويع، ولا مشروع تسكين؛ بل مشروع إيقاظ مع أمل.

ولهذا كان التوازن القرآني:

. خوفٌ يطهر

. ورجاءٌ يثبت

٥) “لقوم يؤمنون”: لماذا حصر النفع في المؤمنين؟

لأن النذارة والبشارة ليستا مجرد معلومات، بل هما “نور” يحتاج عيناً مفتوحة.

غير المؤمن قد يسمع النذير:

. فيتخذه تهديداً

. أو يسخر منه

. أو يلتف عليه بتبريرات

وقد يسمع البشير:

. فيراه وهمّاً

. أو يعدّه تمنّياً

أما المؤمن فالنذارة عنده ليست إذلالاً، بل رحمة:

“أن تُنذَر قبل أن تقع خيرٌ من أن تقع بلا إنذار”.

والبشارة عنده ليست مخدراً، بل وقود: يبني بها قدرة الاستمرار في طريق طويل.

إذن: الإيمان هنا ليس لقبًا،

بل هو قابلية الانتفاع.

٦) **المفصل الأخير: ما الرسالة التي تخرج بها النفس من هذه الخاتمة؟**

كأن الآية تقول لك:

- لا تفتش عن الغيب عند البشر.
- ولا تفتش عن ضمان النتائج لنفسك.
- خذ طريقك على بصيرة من الوحي: تحذيرًا ورجاء.
- ثم اعلم أن هذا الخطاب لا يفتح قلبه إلا من أراد الإيمان.

فالرسالة ليست أن تصبح “مطمئنًا” فقط،

بل أن تصبح مسؤولًا.

- لماذا قالت الآية (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) بصيغة الحصر “إن...إلا”؟

ما الذي تريد أن تنفيه تحديدًا عن النبي ﷺ في الوعي الاجتماعي؟

وهذا يفتح بابًا خطيرًا عن “صناعة الكهنة” داخل التدين.

نغوص في صيغة الحصر إذن... لأنها ليست “زينة نحوية”، بل حدُّ قرآني يمنع انزلاق الوعي إلى الكهانة:

(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)

هذه الصيغة “إن...إلا” في العربية تُغلق الباب:

لا تترك فراغًا لخيالٍ يُضيف.

كأن القرآن يقول: توقّف هنا... هذا هو التعريف، وما عداه دخيل.

١) **الحصر هنا ليس تواضعًا... بل تطهير للعقيدة**

لو كانت الجملة: “أنا نذير وبشير” فقط،

لظل في الوعي الاجتماعي مجالاً لأن يُقال:

- وهو أيضاً “مالك الأسرار”
- وهو أيضاً “مُتصرف في الكون”
- وهو أيضاً “قاضٍ على المصائر”
- وهو أيضاً “يعطي ويمنع استقلالاً”

لكن القرآن لا يترك النبوة في منطقة “الغموض المقدّس”؛

لأن الغموض المقدّس هو البوابة الكبرى لصناعة الكهنة.

فقال: إن أنا إلا... أي: لا تزيدوا شيئاً.

هذا ليس تقليلاً من مقام النبي ﷺ؛ بل هو تثبيت للمقام الحقّ: مقام الرسالة، ومقام البيان، ومقام القدوة.

٢) ماذا ينفي القرآن تحديداً عن النبي ﷺ؟

الآية قبل الحصر ذكرت ثلاثة نفيات كبرى:

١. نفي ملك النفع والضرر استقلالاً
٢. نفي علم الغيب كصفة ذاتية
٣. ردّ تعريف النبوة إلى الإنذار والبشارة

ثم جاء الحصر كـ “ختم مانع”.

إذن ما الذي يُنفى؟

يُنفى أن تتحول النبوة إلى:

(أ) “سلطة كونية”

أي أن يُتخيّل أن النبي ﷺ يُدبّر الكون، أو يملك مفاتيح القدر.

(ب) “سلطة غيبية”

أي أن يُتخيل أنه يعلم الغيب بإطلاق، أو يقرأ اللوح، أو يعرف ما في الصدور بذاته.

ج) “سلطة توزيع”

أي أن يُتخيل أنه يعطي الخير أو يدفع الشر بملكٍ ذاتي، لا بدعاءٍ وسببٍ وإذن.

هذه السلطات الثلاث إذا اجتمعت، صارت النبوة “ألوهيةً مُستترة”.

فالحصر جاء ليمنع ذلك من الجذر.

٣) لماذا يحتاج المجتمع لهذا الإغلاق؟

لأن التاريخ الديني للبشرية يُظهر ميلاً ثابتاً:

حين يعجز الناس عن مواجهة قسوة الحياة، يبحثون عن “واسطة” تُطمئنهم:

- من يخبرهم بما سيحدث
- من يضمن لهم سلامة الطريق
- من يعطيهم “طمأنينةً سريعة”
- من يختصر لهم العلاقة بالله

ومن هنا تبدأ صناعة “الكاهن”:

الكاهن لا يقوم على البرهان، بل على الادعاء:

“أنا أعرف... أنا أرى... أنا أضمن...”

والقرآن جاء ليهدم هذا الباب من أساسه.

فالرسول ﷺ نفسه يقول: أنا لست كاهناً... لست متصرفاً... لست مالاً للغيب... إن أنا إلا نذير وبشير.

٤) النذير والبشير: ليست رتبة أقل... بل هي جوهر النبوة

قد يتوهم بعض الناس أن “مجرد نذير وبشير” يعني تقليلاً.

والحقيقة عكس ذلك: النذير والبشير هما أعظم سلطة يمكن أن تُعطى لإنسان: سلطة تغيير المصير الأخرى بالبلاغ والهداية.

فهي سلطة على “المعنى”، لا على “الكون”.

وسلطة على “الضمير”، لا على “المقادير”.

وهذا هو الفرق بين الوحي والسحر:

- السحر يعدك بالنتائج
- الوحي يوقظك للحق
- السحر يبيعك الغيب
- الوحي يربيك على الإيمان بالغيب

٥) أثر الحصر في تهذيب التدين نفسه

هذه الآية لا تحاكم غير المسلمين فقط؛ بل تحاكم التدين داخل الإسلام.

تقول للمؤمن: لا تجعل علاقتك بالله علاقة “مراجعات عند الوسطاء”.

لا تُحوّل الدين إلى:

- خدمات غيبية
- وتمائم
- وصكوك أمان
- وعود جاهزة

بل اجعل الدين كما أراده القرآن:

- إنذاراً يطهر
- وبشارة تبني
- وإيماناً يثبت

٦) الخاتمة التي تجرح الوهم لتشفي القلب

إذا أردنا أن نلخص “الجرح الشافي” الذي تصنعه هذه الصيغة:

كل تدين يحتاج إلى شخص “يتصرف في الغيب”
هو تدين لم يكتمل توحيده بعد.

والقرآن يريدك أن تكون: مباشرًا مع الله، لا مسافرًا في متاهة السماسرة
الروحيين.

- كيف تُفهم هذه الآية مع النصوص التي تُثبت للنبي ﷺ بعض “الإخبار
بالغيب” بوحى من الله؟

أي: ما الفرق بين علم الغيب المطلق والإطلاع الموهوب؟

وهذا فصلٌ دقيق يرفع الإشكال ويمنع الإفراط والتفريط.

نغوص إلى هذا الفصل الدقيق: كيف تنفي الآية علم الغيب عن النبي ﷺ ثم
نجد في القرآن والسنة ما يدل على أنه أخبر ببعض الغيب؟

الجواب في الفرق بين شيئين لا يجوز خلطهما:

١. علم الغيب الذاتي المطلق

٢. الإطلاع الموهوب على بعض الغيب بالوحي

١) ما الذي نفته الآية تحديدًا؟

حين يقول ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ
السُّوءُ﴾

فهو ينفي امتلاك الغيب كصفة قائمة به: غيبٌ دائم، شامل، تحت الطلب،
يُدِير به حياته ويصنع به المكاسب ويتجنب به الآلام.

هذا هو “الغيب” الذي يطلبه الناس عادة من الكهنة: أن يعرفوا ما سيحدث
لهم، ومتى، وكيف، وأين يقع الضرر، وأين يقع الربح.

والآية تقطع الطريق: هذا ليس عندي.

٢) وما الذي أثبتته القرآن للنبي ﷺ؟

القرآن يثبت أن الله قد يطلع رسله على بعض الغيب لا كله، بقدر الرسالة لا بقدر الهوى، وبطريق الوحي لا بطريق “الاستقلال”.

وأصرح ما يضع القاعدة:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ)

(الجن ٢٦-٢٧)

هذه الآية تُعطيك ميزانًا بديعًا:

- الأصل: لا يُظهر غيبه أحدًا
- الاستثناء: إلا رسولاً ارتضاه
- والمعنى: إطلاعٌ مخصوص، لا علمٌ مطلق.

٣) الفرق الجوهرى: “صفة” أم “هبة”؟

علم الغيب المطلق (المنفى)

- صفة ذاتية
- شامل لكل ما غاب
- مستمر
- يُستدعى متى شاء صاحبه
- لا يخطئ ولا ينسى
- يُبنى عليه تدبير المصائر

وهذا لا يكون إلا لله.

الإطلاع الموهوب (المثبت)

- عطية من الله
- جزئي: “بعض”
- مرتبط بالحاجة الرسالية
- قد يُعطى في وقت ويُحجب في وقت

- ليس تحت تصرف الرسول كيف شاء
- ليس معيارًا للنجاة الدنيوية (“لاستكثرت من الخير...”).

فالرسول يتلقى ولا يمتلك.

وهنا يصفو المعنى: النبي ﷺ ليس “خزان غيب”، بل “مستقبل وحي”.

٤) شواهد قرآنية تكشف طبيعة الإطلاع

لاحظ كيف يصف القرآن الأخبار الغيبية للنبي ﷺ:

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ) (هود ٤٩)

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) (يوسف ١٠٢)

المفتاح هنا: نوحيتها إليك

أي: ليس علمًا ذاتيًا، بل “رسائل” يرسلها الله متى شاء.

بل حتى في شؤون قريبة من الحياة اليومية يظهر هذا الحد:

(وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا... فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ) (التحریم ٣)

“أظهره الله عليه” = إطلاع من الله على واقعة مخصوصة، لا علم مطلق بكل خفي.

٥) لماذا ينفي النبي الغيب ثم يُخبر بالغيب؟

لأن القرآن يريد سدّ بابين خطيرين:

باب التألّيه

أن يُرفع النبي إلى مقام “المتصرف في الغيب”.

وباب الكهانة

أن يتخذ الناس الدين طريقًا للطمأنينة السريعة:

“قل لي ماذا سيحدث... كم سأربح... متى سأصاب... هل سأنجو؟”
فجاءت آية الأعراف لتقول: الرسالة ليست “خدمة غيب”، بل إنذار وبشارة
وهداية.

أما الغيب الذي يُعطى للنبي، فليس ليستكثر به خير الدنيا، بل ليقيم به:

- . الحجة
- . البيان
- . تثبيت المؤمنين
- . كشف سنن الله في التاريخ

٦) خلاصة الفصل كله في جملة واحدة

الغيب في القرآن ملكٌ لله، وما يصل إلى الرسول منه وحيٌّ مُجزأً بحسب
الحكمة، لا “ملكية غيبية” تُدار بها الدنيا.

ولهذا يستقيم أن يقول ﷺ بصدقٍ كامل:

. لا أعلم الغيب (أي: لا أملكه ولا أتحكم به)

ويستقيم أيضاً أن يخبر ببعض الغيب (أي: بما أوحاه الله إليه).

- لماذا جعلت الآية معيار نفي الغيب: “لاستكثر من الخير وما مسني
السوء”؟

أي: كيف نعرف أن الإطلاع الذي وقع للنبي ﷺ لم يكن من هذا الباب
أصلاً، بل من باب الرسالة فقط؟

نغوص الآن إلى أدق ما في الآية: البرهان الذي اختاره القرآن لنفي الغيب
ليس منطقياً مجرداً، بل نفسي/وجودي:

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

كأن القرآن يقول: ليست المسألة “هل أخبرت ببعض الغيب؟”

بل: هل أملك الغيب بحيث يصير أداة إدارة دنيوية تُراكم بها المنافع وتُصَفِّي بها الحياة من الألم؟

وهذا هو الفارق الذي يُنهي الإشكال من جذره.

(١) الغيب الذي ينفيه القرآن: غيب “التحكّم” لا غيب “البلاغ”

الناس حين يقولون “يعلم الغيب” يقصدون عادةً شيئاً محدداً:

- أن يعرف المستقبل على نحوٍ يضمن له “أفضل الخيارات”
- أن يتجنب الخسائر قبل وقوعها
- أن لا يقع في المفاجآت
- أن يملك خريطةً اقتصادية/أمنية/صحية للحياة

ولهذا جاء المثال في الآية اقتصاديةً وأمنياً:

- استكثار الخير = تعظيم المكاسب، تقليل الفوات، اختيار الربح دائماً
- وما مسني السوء = محو المفاجآت المؤلمة، تجنب الخطر قبل أن يقترب

هذا هو غيب “التحكّم”.

أما الغيب الذي يثبت القرآن للنبي ﷺ فهو غيب “البلاغ”:

- إخبارٌ يثبت الرسالة
- ويقوم الحجة
- ويكشف سنن الله
- ويهدي الناس لمراد الله

لا ليصنع للنبي “حياة بلا ألم”.

(٢) لماذا هذا البرهان حاسمٌ جداً؟

لأن كل “إطلاع غيبي” لو كان من باب التحكّم لظهر أثره فوراً في سيرة النبي ﷺ:

- ما كان سيفاجأ بأذى
- ولا يُحاصر
- ولا يُرمى
- ولا يُجرح
- ولا تُكسر رباعيته
- ولا يمرّ بسنوات شدة
- ولا يودّع أحبةً في مواقف موجعة

لكن السيرة - والقرآن معها - تثبت أن النبي ﷺ عاش "منطقة الإنسان" كاملة: يمسهّ السوء، وتتأخر عليه بعض أسباب الخير، ويبتلى، ويصبر، ويؤذى.

إذن: ما أعطيه من الغيب لم يكن "غيب إدارة دنيوية"، بل "غيب رسالة". وهذا معنى الآية بحدها الصارم.

٣) لماذا قال: "لاستكثرث" لا "لاستكثرث من الطاعة"؟

هذه لفظة مذهلة: لو قال: "لاستكثرث من الطاعة" لكان الكلام عن "الخير الأخروي" الذي قد يختلط على السامعين: هل المقصود مزيد عبادة؟ مزيد إحسان؟ مزيد هداية؟

لكنه قال: استكثرث من الخير مطلقاً، ثم قرنه بـ "السوء" الذي يمسّ.

وهذا في مقام الاحتجاج مع قوم يسألون عن الساعة والغيب، ويريدون "معلومات" تُنقذهم من المفاجأة.

فجاءت الآية بلغة الواقع: الغيب الذي تطلبونه لو كان عندي لصنعتُ به حياةً أقلّ عرضةً للألم وأكثرَ تحصيلاً للمنافع.

فلما لم يقع ذلك، علّم أني لا أملك الغيب الذي تظنونونه.

٤) الغيب الموهوب للنبي ﷺ: لماذا لا ينقلب إلى "استكثرث"؟

لأنه "مقيّد" بثلاثة قيود ربانية:

أ) قيد المصدر

ليس من عند النفس، بل من عند الله: يوحيه إليك.

ب) قيد الغاية

ليس لتزكية الحياة الدنيوية للنبي، بل لتزكية الرسالة في الناس:

هداية، إنذار، تثبيت، إقامة حجة.

ج) قيد المقدار

ليس "كل الغيب"، بل "قدرٌ منه" بحسب الحكمة: إلا من ارتضى من رسول.

هذه القيود الثلاثة تمنع تحوّل الغيب إلى أداة "استكثار" دنيوي.

هـ) لماذا ربط "علم الغيب" بنفي "مسّ السوء"؟

لأنه يريد أن يضرب وهمًا شديد الرسوخ: الناس يظنون أن قربك من الله يعني أن حياتك ستكون محمية من الألم.

والقرآن يرد: لا.

النبي ﷺ أقرب الخلق، ومع ذلك يمسه السوء.

إذن معيار القرب ليس "الرفاه"،

بل "الثبات".

ومعيار الرسالة ليس "الضمان"، بل "البلاغ".

وهنا تُشفى النفس من نوعين من الانحراف:

- من يظن الدين صفقة سلامة
- ومن يظن الابتلاء علامة رفض
-

٦) لب الغوص في عبارة واحدة

الغيب الذي ينفيه النبي ﷺ هو الغيب الذي يجعل الحياة قابلة للسيطرة،
أما الغيب الذي أعطيه فهو الغيب الذي يجعل الرسالة قابلة للبيان.

ولهذا جاءت الخاتمة مباشرة: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾

أي: لا تجعلوا الرسالة "إدارة مستقبل"، بل "هداية قلب".

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

هناك سرٌّ في تقديم النفع على الضرر هنا، وفي ذكر "لنفسي" تحديدًا.

نغوص في صدر الآية؛ لأن القرآن لا يختار ترتيب الألفاظ اعتباطًا، بل
يبني بها "ميزانًا" في النفس:

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

سأقف مع ثلاث دقائق:

(١) لماذا قال: لنفسي؟

(٢) لماذا قدّم النفع على الضرر؟

(٣) ماذا تفعل "إلا ما شاء الله" في بنية القلب؟

١) لماذا قال: «لنفسي»؟ لأن العجز هنا حجة لا تُردّ

لو قال: "لا أملك لكم نفعًا ولا ضررًا" لربما قال قائل:

قد لا تملك لنا، لكنك تملك لنفسك!

أو: قد لا تقدر على الآخرين، لكنك تقدر على ذاتك!

فجاء الجواب من داخل أقرب دائرة: أنا لا أملك حتى لنفسي.

وهذه أقوى صيغة في قطع التعلق: إذا كان الإنسان لا يملك لنفسه، فكيف يُطلب منه أن يملك لغيره؟

ثم إن "لنفسه" تحطم وهماً لطيفاً يتسلل إلى التدين:

أن النبي ﷺ قد يكون متصرفاً في الخلق لأنه متصرفٌ أولاً في نفسه.

والقرآن يريد أن يبقي النبوة "عبودية كاملة": النبي عبدٌ في ذاته قبل أن يكون مبلّغاً في قومه.

٢) لماذا قدّم «نفعاً» على «ضرراً»؟ لأن الوهم يبدأ من الطمع لا من الخوف

الناس يظنون أن الخرافة تُصنع بالخوف، لكن غالب الخرافة تُصنع بالطمع.

- الطمع في الرزق
- الطمع في الحظ
- الطمع في الفتح السريع
- الطمع في ضمان السلامة
- الطمع في "باب مختصر" للخير

ولهذا تُصنع سوق الكهانة من جهة "العطاء" أكثر مما تُصنع من جهة "التهديد".

فالقرآن قدّم النفع لأن النفوس تتعلق بالوليّ أو الشيخ أو الساحر أو الكاهن غالباً لا لتدفع ضرراً فقط، بل لتجلب نفعاً:

- "يفتح لك الأبواب"
- "يجلب الرزق"
- "يكتب لك القبول"
- "يضمن لك النصيب"

فجاءت الآية لتقطع أول جذور الانحراف:

لا أحد يملك "النفع" استقلالاً... حتى النبي ﷺ.

ثم بعد قطع الطمع، يأتي قطع الخوف:
ولا ضرراً كذلك.

فالترتيب يظهر مصدرَي التعلُّق: الطمع ثم الخوف.

٣) “لا أملك”: نفْيُ الملك لا نفْيُ التأثير

القرآن لا يقول: ليس لي تأثيرٌ أبداً؛ بل يقول: ليس لي “ملك” مستقل.
قد يدعو النبي فيُستجاب له بإذن الله، وقد يأخذ بالأسباب فتتحقق نتائج،
لكن هذا كله داخل دائرة واحدة:

(إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

فالاستثناء هنا ليس هامشاً؛ إنه “عصب” التوحيد:

- يجعل الأسباب أسباباً لا آلهة
- ويجعل الدعاء عبودية لا سحراً
- ويجعل البركة عطية لا حقاً مكتسباً

٤) “إلا ما شاء الله”: كيف تُعيد هذه الجملة تشكيل القلب؟

هذه الجملة تصنع فيك ثلاث صفات:

أ) التواضع عند تحقق الخير

لأنك تعلم أن الخير ليس “ملكيتك”.

ب) السكينة عند نزول البلاء

لأنك تعلم أن البلاء ليس “فشلاً وجودياً”، بل مشيئةٌ لها حكمة.

(ج) التحرر من الابتزاز الروحي

فلا يستطيع أحد أن يبيعك النفع أو يخوفك بالضرر،

لأنك تعلم أن المفاتيح ليست في جيبه.

(هـ) الخلاصة الدقيقة

الآية تبدأ بأقرب دائرة: لنفسي، ثم تقطع أكبر منفذين للتعلق: النفع ثم الضرر، ثم تثبت مركز الكون: إلا ما شاء الله.

وهكذا تُبنى العقيدة على صفاء: لا مالك إلا الله، ولا متصرف استقلالاً إلا الله، ولا مقصد للقلوب إلا الله.

- من الذي يحتاج أن يسمع هذا القول، ولماذا "قولٌ مُعلنٌ" لا معنىً داخليً فقط؟

نغوص في (قُل)... لأنها ليست أمرَ نطقٍ فحسب، بل أمرٌ "إعلانٍ عقدي" يُدار به الوعي العام.

الآية لم تقل: "واعلم" أو "تذكر"، بل قالت: قُل.

أي: اجعلها كلمةً مسموعة، لا معنىً مكتومًا.

وهذا يفتح ثلاثة أغوار: لمن؟ ولماذا؟ وبأي أثر؟

(١) لماذا "قُل": لأن الخلل ليس في قلب النبي... بل في خيال الناس عنه

النبي ﷺ لا يحتاج أن يُقنع نفسه بأنه عبدٌ لا يملك الغيب؛ هذا مقامه أصلاً.

الذي يحتاج التصحيح هو الوعي الجمعي: المجتمع الذي يميل - بطبيعته - التاريخية - إلى:

- صناعة "الإنسان فوق الإنسان"
- تضخيم الرموز حتى تُؤلّه معنويًا
- تحويل القداسة إلى سلطة

فجاء الأمر: قُلْ

أي: اقطعوا الطريق على الأسطورة من فمها، قبل أن تتضخم في الوجدان.
والقرآن في هذه النقطة شديد الواقعية: يعرف أن الناس قد يَغْلُونَ في حبّ الصالحين كما غلت أممّ قبلهم.

٢) “قُلْ” هنا إعلانٌ “حدّ معرفي” يمنع الكهانة

لماذا لا يتركها القرآن معنىً ضمناً؟

لأن “الضمني” لا يَمنع السوق.

سوقُ الغيب لا يعيش على الحقائق، بل يعيش على الفراغات.
كلما تركت فجوةً في تعريف النبي ﷺ، دخلت الخرافة لتملأها:

- مرةً باسم الكرامة
- ومرةً باسم الولاية
- ومرةً باسم السرّ
- ومرةً باسم الكشف

فجاء الأمر بالتصريح:

قُلْ: لا أملك... لا أعلم... إن أنا إلا...

أي: لا تتركوا مساحةً للموهّمين.

٣) لماذا يُعلن هذا على الملأ؟ لأن التوحيد ليس تجربةً فرديةً فقط

التوحيد في القرآن ليس “حالة قلبية” فحسب؛ إنه نظام حياة، وميزان سلطة،
وتحرير مجتمع.

حين يَعتقد الناس أن بشرًا يملك النفع والضرر:

- تُصنع طبقةٌ تتحكم بهم باسم السماء
- تُباع الطاعة كأنها “ضمان”

• يُستغل الخوف والطمع

فـ “قُلْ” هنا هو تأسيس لمجتمع لا يركع إلا لله.

كأن القرآن يقول: لا نريد عبيدًا لكاهن، بل عبادًا لله.

٤) “قُلْ” كذلك حماية للنبي ﷺ من أن يُستخدم ضد رسالته

هذا بُعدٌ دقيق: لو تُركت صورة النبي قابلة للتمدد، سيستغلها خصمان:

(أ) خصوم النبوة

سيقولون: هو يدّعي ما ليس له، أو يطلب سلطانًا غيبيًا.

فالقرآن يأخذ منهم الذريعة:

ها هو يُعلن أنه لا يملك ولا يعلم إلا بما شاء الله.

(ب) غلاة المحبين

سيسحبون مقامه إلى ما يفسد التوحيد، ويحوّلون الرسالة إلى “مزار”.

فـ “قُلْ” يصون الرسالة من الطرفين معًا:

• لا كهانة للخصوم

• ولا وثنية للمحبين

٥) لماذا “قُلْ” مرتبطة بهذه الآية تحديدًا؟

لأن موضوعها الثلاثي هو أكثر ما يُنتج الخرافة:

• النفع والضرر

• الغيب

• التعريف النهائي للرسول

هذه الثلاثة هي مادة الكهانة في التاريخ كله.

فجاء الأمر بالقول ليُكسر “الطلب الاجتماعي” نفسه:

الناس يريدون شخصًا يضمن لهم:

- . الرزق
- . السلامة
- . المستقبل

والقرآن يقول: لا تذهبوا بهذا إلى بشر...

ارفعوا حاجتكم إلى الله مباشرة.

٦ الخلاصة: “قل” هنا ليست كلمة... إنها “سياجٌ للتوحيد”

هي كأنها لوحة مكتوبة على باب الدين: لا تدخلوا إلى الله عبر وسطاء
يُملكون، ادخلوا عبر عبودية صافية.
الرسل دلائل، لا خزائن.
ومفاتيح الكون ليست في يد أحدٍ إلا الله.

- كيف نُسهِم هذه الآية في تصحيح “لغة الدعاء والتوسل” عند الناس؟

وأين الحدّ الفاصل بين التوسل المشروع وبين تحويل التوسل إلى اعتمادٍ
على غير الله؟

نغوص في هذا الباب الحساس بميزانٍ قرآنيّ نقي: كيف تُهذَّب الآية لغة
الدعاء والتوسل دون أن تُفقر الروح أو تُقسِّيها؟

الآية تؤسِّس قاعدةً كبرى: لا أحد يملك النفع والضرر استقلالاً، ولا الغيب،
إلا الله.

ومن هنا يبدأ تصحيح “لغة التدبُّين” التي قد تنزلق من التوسل إلى الاتكال
على غير الله.

سنضع ميزاناً عملياً من ثلاث طبقات: المقصد، واللفظ، والاعتقاد.

١ المقصد: إلى من تتجه بالقلب حين تدعو؟

الحد الفاصل الأول ليس في الجملة التي تنطقها، بل في الوجهة القلبية:

• إن كان قلبك يرى أن الله هو الفاعل، وأن المخلوق سبب لا يملك... فهذا توحيد.

• وإن كان قلبك يتعلّق بالمخلوق بوصفه “ضامناً”، أو “مفتاحاً مستقلاً”... فهذا بدء الانحراف الذي تقطعه الآية.

فالآية ليست ضد المحبة ولا التعظيم المشروع، بل ضد “نقل الملك” من الله إلى البشر.

(٢) الاعتقاد: ثلاثة أسئلة تكشف لك حقيقة ما تفعل

قبل أن تسأل: هل عبارتي صحيحة؟ اسأل نفسك:

١. هل أظن أن فلاناً يُعطي بذاته؟
٢. هل أظن أنه يدفع البلاء بذاته؟
٣. هل أتعامل معه كأنه يعلم ما أخفي؟

إذا دخل واحدٌ من هذه في قلبك، فأنت اصطدمت مباشرة بجدار الآية:

(لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً... ولو كنت أعلم الغيب...)

أي: إذا كان النبي ﷺ لا يملك هذا استقلالاً، فكيف يُنسب لغيره؟

(٣) اللفظ: الفرق بين “طلب الدعاء” و “طلب التصرف”

هنا التفريق الدقيق الذي يضبط كلام الناس:

(أ) طلب الدعاء من الحيّ الحاضر القادر (مشروع في أصله)

مثل أن تقول لأخ صالح:

- ادعُ الله لي
- استغفر لي
- اسأل الله أن يفرّج همي

هذا في حقيقته توحيد؛ لأنك لم تطلب منه “الفعل”، بل طلبت منه أن يتوجه معك إلى الله.

ب) مخاطبة غير الله بطلب لا يقدر عليه إلا الله (خطر عقدي)

أن تقول للمخلوق بوصفه فاعلاً:

- ارزقني
- اشفني
- فرّج كربتي
- أنقذني
- اكتب لي نصيبي
- احفظني من الغيب

هذه الألفاظ - إذا قصدت على حقيقتها - تُسند "الملك" لغير الله، والآية جاءت لتمنع هذا الإسناد من الأساس.

قد يقول قائل: أنا أقصد "بإذن الله".
نعم، لكن القرآن يربيك على أن لا تُربّي لسانك على ما يفتح باب الغلو في قلبك.

لأن الألفاظ تُعلّم القلب ببطء.

٤) التوسل المشروع: "أسباب" لا "بدائل"

التوسل المشروع في جوهره هو: اتخاذ سبب يقربك إلى الله، لا سبب يُغنيك عن الله.

وأقرب صورته:

- التوسل بأسماء الله وصفاته: يا رحمن، يا كريم...
- التوسل بالعمل الصالح: اللهم بإيماني بك...
- التوسل بدعاء الصالحين الأحياء (طلب الدعاء)

وجامعها واحد:

الدعاء لله، والطلب من الله، والرجاء في الله.

٥) متى ينقلب التوسل إلى “سوق غيب”؟

ينقلب حين تظهر إحدى العلامات التالية (وهذه علامات عملية، لا تنظير):

١. اعتماد القلب على الشخص أكثر من اعتماده على الله
٢. الخوف من الشخص كما يُخاف من القدر
٣. تخصيصه بقدرة خفية: يفتح ويغلق، يرفع ويضع
٤. التعامل مع الدين كخدمة: ادفع لتأخذ... زر لتحصل... علق لتتجو
٥. تحول الدعاء إلى نداءٍ للمخلوق بدل نداء الخالق

وهنا يصبح الدين “كهانة” بنكهة دينية.

والآية - بتركيبتها - جاءت لتتسلف أساس هذه السوق:

لا نفع ولا ضر ولا غيب في يد بشر.

٦) كيف تُهذَّب لغتك دون أن تُجرح محبتك للصالحين؟

هذه نقطة دقيقة: القرآن لا يريد قسوة ولا جفاءً، بل يريد محبة منضبطة.

بدل أن تقول (بألفاظ تحتل الغلو):

يا فلان فرّج كربتي

اجعلها:

يا رب فرّج كربتي، واجعل دعاء فلان سبباً، وارزقني ببركته بمعنى دعائه وصلاحه لا بمعنى تصرفه

وبدل أن تقول:

يا رسول الله أغثنّي

اجعل تعظيمك على الصورة التي علّمها القرآن:

اللهم صلّ وسلم على نبيك، اللهم بجاهي عندك وبمحبتني له
ارزقني... (مع بقاء الدعاء لله)

(وهنا يظل الخلاف الفقهي في بعض الصيغ معروفاً بين أهل العلم، لكن ميزان الآية الذي لا يختلف عليه أحد: لا تُسند “الملك” لغير الله.)

٧) الخلاصة التي تخرج بها من الآية

هذه الآية تُعطيك قاعدة ذهبية لضبط كل باب التوسل والدعاء:

اطلب من الخلق ما يقدرُون عليه (نصيحة، دعاء، مساعدة)،
واطلب من الله ما لا يقدر عليه إلا الله (رزق، شفاء، تفريج، هداية، حماية من الغيب).

وبهذا تبقى:

- روحك رقيقة بمحبة الصالحين
- وعقيدتك صافية بتوحيد رب العالمين

- لماذا قال: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ بعد كل هذا؟

وكأنه يقول: وظيفتي أن أوجهك إلى الله، لا أن أكون أنا جهة الطلب.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾

بعد نفي ملك النفع والضرر ونفي علم الغيب؟

لأن الآية لا تكتفي أن تُسقط “السلطات المتوهمة” عن النبي ﷺ، بل تُعيد تعريف العلاقة كلها: من جهة الطلب؟ ومن جهة التلقي؟ ومن جهة المقصد؟

وهذا هو القفل.

١) نفي الملك تمهيداً لتحويل “جهة الطلب”

حين يقول: لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً، فهو يسحب منك فكرة أن النبي ﷺ “خزانة فوائد” أو “درع ضد القدر”.

ثم يقول: ولو كنت أعلم الغيب... فهو يسحب منك فكرة أن النبي ﷺ “بوابة المستقبل”.

هذان النفيان يفرغان يد النبي ﷺ من “وظائف” يتعلّق بها الناس عادةً: العطاء، والحماية، وكشف المجهول.

لو توقّفت الآية هنا لتركت فراغاً مخيفاً في النفس:

إذا لم يكن هذا عنده... فمن أين أمسك حياتي؟

فجاء الختام ليملأ الفراغ بالوظيفة الحقيقية: أنا لست جهة طلب... أنا جهة دلالة.

(٢) “نذير وبشير” تعني: أنا علامة طريق لا ملك طريق

القرآن يحدد مقام النبوة بوصفٍ “إرشادي” لا “تملكي”:

• النذير: يقول لك “هنا هاوية”

• البشير: يقول لك “هنا نجاة”

أما أن يمسك بيدك ويمنع عنك السقوط قهراً، أو يعطيك النجاة كشيك جاهز، فليس هذا مقام الرسالة.

الرسول ﷺ في هذا المعنى: لا يملك أن يُلغي قانون الاختيار ولا يملك أن يُسقط تبعات الطريق ولا يملك أن يمنحك ضماناً دنيوياً.

هو يريك الحقيقة، ثم يترك لك كرامة الاختيار.

وهنا تتجلى حرية الإنسان التي يربي عليها القرآن.

(٣) لماذا بالذات “نذير” و “بشير” بعد نفي الغيب؟

لأن البشر يطلبون الغيب غالباً لسببين:

• ليعرفوا أين يربحون (استكثار الخير)

• وأين ينجون (عدم مس السوء)

فقال لهم القرآن: الغيب الذي تريدونه لن يُعطى لكم على هيئة “خريطة مكاسب” و “خريطة أمان”.

لكن سيُعطى لكم شيءٌ أعمق وأشرف: خريطة أخلاق ومعنى.

النذير والبشير هما “بديل الغيب التجاري” بالغيب الرسالي:

ليس ليخبرك بماذا سيقع غدًا،

بل ليخبرك ماذا تفعل اليوم كي لا تخسر الأبد.

٤) القفل الأكبر: إخراج النبي ﷺ من أن يكون “مقصودًا في ذاته”

هذه هي النقطة التي تلتئم فيها كل الآية:

حين يتحول النبي ﷺ في وعي الناس إلى “جهة الطلب”، يقع خللٌ مزدوج:

- يضعف التوحيد (لأن القلب توزّع)
- ويُفرّغ الدين من جوهره (لأنه يصير خدمات ونتائج)

فالقُرآن يختم بالحصر:

إن أنا إلا...

أي: لا تجعلوني “صاحب المفاتيح”،

اجعلوني “صاحب الرسالة”.

وهنا تتطهر المحبة نفسها:

نحب النبي ﷺ على حقيقته:

- نفتدي به
- نصدقّه
- نتبعه
- نصلي عليه
- نعظمه تعظيمًا شرعيًا

لكن لا نحمله ما لم يحمله الله، ولا ننسب إليه ما نفاه عن نفسه.

٥) “لقوم يؤمنون”: لماذا ختم بالقوم لا بالأفراد؟

لأن هذا التعريف ليس علاجاً لفردٍ فقط، بل بناءً لثقافة.

ثقافة ترى النبوة:

- منهج هداية
- لا باب وساطة

وثقافة ترى الله:

- جهة الطلب الوحيدة
- ومالك النتائج كلها

و“لقوم يؤمنون” تعني: الذين يريدون أن يعيشوا بهذا الميزان، لا الذين يبحثون عن حيلٍ على القدر.

٦) القفل في جملة واحدة

الآية تقول لك في آخرها:

إذا أردت شيئاً لا يملكه إلا الله، فإذهب إلى الله.
وإذا أردت أن تعرف الطريق إلى الله، فإذهب إلى الرسول.

الرسول دليل... لا بديل.

ووجهة الطلب الله... لا أحد سواه.